

## هذا العام.. هل هو زمن جديد؟



ها هو العام يستعد لتوشح اسم جديد ليؤكد أنه جاد في التقدم والمضي بنا حيث لا ندري! ماذا يعني تغيير الأسماء إذا لم تتغير المعاني؟ ماذا يعني أن يمر الزمن إذا لم نغتني منه لحظات أبدية ننتصر بها عليه؟! ماذا يعني أن ينتظرنا العام الجديد لتغيير التاريخ في دفاترنا إذا لم نستوعب أن عامًا ينفرد لزدحامه بالأحداث بما يكفي!

يحضرنى حديثي مع خالي يوم أخبرته أن حنيني كبير للأيام الأولى للجامعة حتى أردف أن حنيننا لطفولتنا وأيام شبابتنا الأولى إنما هو حنين لزمن امتد بثناء اكتشافنا ودهشتنا، فتلك الأيام كانت زاخرة باللحظات البكر التي تعلمنا فيها أغلب أمورنا التي نمارسها اليوم بكل أريحية وروتينية، هنا قفز سؤال المعنى، المعنى الذي نضيفه على اللحظة فتغدو أعرض وأرحب حيث ننتصر على الوقت الذي يجري كالنهر دون توقف غير آبه بتعبنا وضعفنا.

إذا أمسكنا بالمعنى فإننا نعيش اللحظة أضعافًا مضاعفة! لكن كيف نمسك بالمعنى؟! نمسك به عندما لا نغفل عن التفاصيل التي تمر علينا ومن حولنا، سماء فسيحة، شمس دافئة، حزن صادق، كد حالم، خطو مصر، صدق شفيف، محبة نقية، عفو واع، عذر عميق، فهم سام،... إن التفاصيل الصغيرة هي التي تشد أزر الخطوات العظيمة.

تخبرني إحدى صديقاتي أنها نجحت في الفوز على الفكرة المرعبة أن العمر يتقدم بنا ونحن بعد لم نحقق أحلامنا، تقول إن ما يهمها هو الماضي نحو الحلم، المحاولة، أن تسقط وتنهض من جديد ولا تتخلي عن حلمها مهما مضى من عمرها، فهي ماضية نحوه ولو تحقق في آخريوم من حياتها، المهم والأهم أن تواصل وأن تسير نحوه وتقترب منه، ففي السير يكمن المعنى وفي المثابرة يجب إدراك المتعة، فماذا يفيدنا تأسيسنا على عمر تقدم ونحن ما زلنا خارج عوالم أردنا بل خططنا وترصدنا ولوجها في عمر بعينه؟ لن يزيدنا الأسى إلا حرقة وتآلمًا يرمي بنا عيلين خائري القوى خارج سباق الترقى!

ربما سيطلب منك أحدهم أن تحدثه عن نجاحات السنة، عن أبرز إنجازاتك فيها، عن أسعد لحظة وأخيبتها، عن أعلى ضحكة ضحكتها، عن أمتع كتاب طالعته، عن عدد الروايات التي قرأت، عن عدد الطرقات التي فتحت أمامك والأخرى التي سدت، عن أجمل هدية، عن أدفأ لقاء، عن أرق كلمة، عن أصعب مشكلة، عن عدد الضحايا في حلب المحاصرة، عن عدد القتلى في مجزرة إدلب، عن عدد الأطفال الذين قتلوا في آخر تفجير سيارة مفخخة في أرض دجلة والفرات، عن عدد الأفلام التي شاهدت، عن أروع مقطوعة موسيقية أصغيت، عن البلدان التي زرت.

ربما ستخذلك الإجابة بالهرب منك فتحتار كما أحتار أنا في لحظتي هذه وأنا أشعر بالتلبد تجاه استبدال رقم في أقصى الأحاد بآخر ولا أعلم إن كنت أستبدل معه كل السيئات حسنات؟ لا أعلم إن كنت باستبداله أستبدل خيبات هذا العالم أفراخًا؟ لا أعلم أن في استبداله آذان بداية تقطع مع كل الذي فات أم أن أذيال أسالفه من الأعوام تلاحقنا لأننا بعد لم نتحرر، بعد لم نتصر على القهر والظلم والسواد، أباستبدالنا هذه الستة بتلك السبعة بل بهذه السبعة - لأنها أصبحت قريبة أكثر مما نريد أو مما نعي - نستبدل وهن الثورة ذات الست سنون بروح عزمها يسابق سماوت سبع؟!!

هذا الزمن في الحقيقة لا ينتظر منا رضى ليستمر، هذا الزمن لا يابه باحتفالنا بقدومه أو بحزننا على مضيه، هذا الزمن يمر ونحن وحدنا من نرجو منه المعنى، هذا الزمن بحر تتلاطم أمواجه ونحن أسماك فيه نبحت عن الحياة نحاذر شبكا تسرقنا حياتنا، نحاذر غفلة هائمة، نحاذر ركضًا مجنونًا، نحاذر ضياع البوصلة، نحاذر حزنًا غائرًا، نحاذر حرًا وحشية، نحاذر مادية جوفاء، نحاذر دمغًا مالغًا، نحاذر كراهية عمياء، نحاذر عقلًا جليديًا، نحاذر قلوبًا كالحجارة أو أشد.

هذا الزمن هو عمق فهمنا، هذا الزمن هو مدى نضجنا، هذا الزمن هو الدروس التي استوعبنا، هذا الزمن هو المحبة التي أوقدنا، هذا الزمن هو الإيمان الذي أبع، هذا الزمن هو الدم الذي لا يهدر سدى، هذا الزمن هو الضعف الذي يبحث عن طريق القوة، هذا الزمن هو التغطرس الآيل إلى زوال، هذا الزمن هو الألوان التي تلون الكون ففي الأبيض تكمن كل الألوان والأسود ليس إلا نهم ابتلع الألوان التي ستشرق يومًا، الزمن هو أنت وأنا وهذا المعنى الممدود بيننا يحتاج أفق فهمنا وعبق محبتنا حتى يزهر.